الهوية العربية في مواجهة العولمة المعمارية
فجوة ما بين المفهوم والتطبيق

م. أ. حمدي السطوحي | ممثلاً عن نقابة المهندسين المصريين

- مهندس استشاري متخصص في تصميم المتاحف
- متخصص في الترميم ودراسة المناطق التراثية
- عضو مجلس ادارة جمعية المعماريين المصريين

الكلمات المفتاحية: *الهوية – العولمة – الاستعمار الثقافي – التراث – الاصالة والمعاصرة – جائزة اغا خان – حسن فتحي*

١. مقدمة

نتجول في شوارع البلدان العربية متلامسين مبانيها المستحدثة، ومن ثم نستحضر ذاكرة التاريخ من خلال التوغل داخل اعماق جدران بعض المباني المرتبطة بزمن قد مضى، لنجد انفسنا امام المشكلة بكل ابعادها، مشكلة ليست بجديدة ولا تخص العمارة فحسب بل كل مناحي الحياة، مشكلة طُرحت لها العديد من محاولات العلاج نظرياً وعملياً، متطايراً معها مصطلحات مثل الاصالة والمعاصرة او احياء التراث والحداثة و...، وبين هذا وذاك سنكتشف اننا امام معادلة شديدة الديناميكية طرفيها هما الهوية العربية والعولمة العالمية، الطرف الثاني اتيح له ان يُغرد منفرداً بينما الطرف الاول لم يقوم بدوره حتى الآن بالشكل المطلوب، وهنا تظهر مجموعة من الاسئلة أهمها: كيف تكون الهوية العربية حصن امام الاستعمار الثقافي؟ وهل العولمة المعمارية هي احد ادوات الاستعمار الثقافي؟ وهل من الممكن ان تتكامل الهوية العربية مع العولمة المعمارية؟ ام ان المعادلة في حالة تصادمية دائمة؟ وما هو دور اتحاد المهندسين العرب وباقي المؤسسات الهندسية المعمارية؟

تلك الاسئلة واجاباتها هي مجال البحث وسيسعى الباحث من خلالها إلى تحقيق الهدف وهو تقديم رؤية لكيفية علاج الفجوة ما بين المفهوم والتطبيق في معادلة مواجهة الهوية العربية للعولمة المعمارية. ان العولمة مفهوم مازال تائه بين فريق يؤكد انه لولاها ما حدث هذا التطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا وانتشار الثقافة، وفريق ثاني يتهمها بتدمير الهويات القومية والثقافية وتفتيت الدول والكيانات الى دول ضعيفة وهزيلة، مع هيمنة الثقافة الاستهلاكية. بينما الهوية تعرضت للمتاجرة والسطحية بل والاستهزاء احياناً، حتى اصبحت الفجوة بين المفهوم والتطبيق اكبر مما نتخيل، ليس فقط فيما يخص المعادلة بل ايضاً فيما يخص طرفيها منفردين.

اتبع الباحث في الاساس المنهج الاستقرائي الاستنباطي، من خلال ملاحظة الظواهر وتجميع البيانات عنها من اجل التوصل إلى مجموعة من النتائج ذات علاقات كلية للحصول على مباديء عامة، واتاح هذا المنهج للباحث الانتقال من الجزء الى الكل أو من الخاص الى العام حيث يبدأ بالتعرف على الجزيئات ويقوم بالتعميم على الكل، بعد ذلك يستدل الباحث من خلال استنباط يبدأ من المسلمات والنظريات من اجل استنباط منها ما ينطبق على موضوع البحث. ثم اتبع المنهج الوصفي لدراسة الروابط والعلاقات المتبادلة بين اركان البحث ولقد استخدمها الباحث بسبب وجود معرفة مسبقة ومعلومات كافية حول الظاهرة موضع الدراسة وقد افاد ذلك كثيراً في تفسير وتحليل الظاهرة، وهنا يأتي دور المنهج التاريخي والذي لجأ له الباحث من اجل معرفة أصول النظريات المرتبطة بموضوع البحث والمساعدة في ايجاد العلاقة بين الظواهر المدروسة وبين البيئة التى أدت الى نشوئها.

تركزت اهداف البحث في السعي لمحاولة علاج الاشكالية الخاصة به، فاذا كانت المنطقة العربية تمر بحالة من فقدان الهوية تتزايد امام قوة نفوذ العولمة المعمارية في الوقت الذي يوجد فيه الكثير من المؤسسات المعمارية والهندسية الاقليمية والمحلية، فأننا امام أشكالية من اجل حلها بلور الباحث اهداف البحث في ثلاثة حزم، الاولى حول كيفية استثمار المؤسسات المحلية والأقليمية وذلك بتفعيل ددورها، والثانية الاستفادة بمميزات العولمة المعمارية، اما الثالثة فتعني بكيفية استحضار الهوية العربية. ولتحقيق اهداف البحث افترض الباحث امكانية التعاون والتنسيق بين كافة المؤسسات المعنية على المستويين الاقليمي والمحلي، واذا لم تتوفر الفرضية فسيكون من الاحرى ان تكون هذه الفرضية هي الهدف الرئيسي للبحث نظراً لأهميتها، فكيف لنا ان نسعى لتحقيق اهداف عامة ونحن لا نعلم كيف نتشارك او نتكامل مع بعضنا البعض ...! وهذا ما سيتناوله الباحث في الجزء الرابع للبحث والذي يأتي بعد ثلاثة اجزاء، الاول يتناول مفهوم ونشأة العولمة وعلاقتها بالاستعمار وفكرة العولمة المعمارية، والجزء الثاني يتطرق للهوية من حيث التعريف والمفهوم والتناول، اما في الجزء الثالث فخصصه الباحث لدراسة العلاقة بين العولمة المعمارية والهوية العربية وعرض بعض التجارب والتي لها اسهامات في هذا الصدد.

وينتهي البحث بمجموعة من النتائج والتوصيات تقترح حزمة من المباديء الحاكمة لعملية العمران لتعميمها على الدول العربية بهدف استحضار هويتها مع الاستفادة بالنواحي الايجابية للعولمة المعمارية، والتعامل مع العولمة على نطاقات جغرافية اولها المنطقة العربية، مع وضع خطط لتنمية مهارات المعماريين العرب ليكونوا قادرين على تحقيق الاهداف المرجوة.

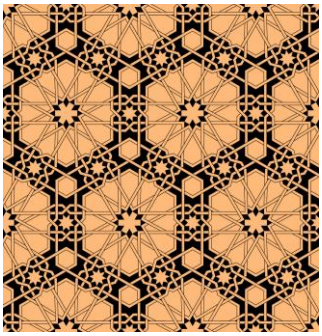

٢. العولمة

منذ تقريباً ٢٥ عام انتشرت كلمة العولمة بشكل ملفت للنظر حيث لم تخلو جريدة يومية في شتى بقاع الأرض من ذكر موضوع حولها، وصارت هي الشغل الشاغل لأهم ثلاث منظمات اقتصادية في العالم وهي البنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة العالمية، ولقد كُتب الاف الكتب والدوريات تتناول قضية العولمة وما يحيط بها بالبحث والتحليل. والبحث ليس معنياً بالتعريف الخاص بالعولمة او سلبياتها بقدر ادراك الفجوة بين المفهوم والتطبيق، وتأثير ذلك على المنطقة العربية وانعكاسها على العمارة نتيجة التفاعل الديناميكي مع الهوية العربية.

لفظ العولمة هو ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Globalization) والذي يترجمها البعض بالكوكبة أو الشمولية، إلا إنه في الآونة الأخيرة أشتهر مصطلح العولمة وأصبح هو أكثر الترجمات شيوعاً في جميع المجالات، وتحليل الكلمة بالمعنى اللغوي يعني تعميم الشيء وإكسابه الصبغة العالمية بجعله دولي الانتشار في مداه أو تطبيقه فتتوسع دائرته ليشمل العالم كله، وللعولمة اوجه عديدة اقتصادية وسياسية وايضاً اجتماعية وثقافية. وتبدأ العولمة بجعل الشيء مناسباً أو مفهوماً أو في المتناول لمختلف دول العالم، وبالتالي توضع القوانين والروابط الحاكمة وتزاح الاسوار والحواجز بين الدول، ثم يمتد الأمر لسيطرة البعض على البعض الأخر ومن هنا تبدأ المشكلة.

لقد كان لانهيار سور برلين، وتفكك الاتحاد السوفيتي وسقوط النظام الاشتراكي والذي كان يتقاسم الهيمنة مع الولايات المتحدة، سبب رئيسي و جوهري في انتشار العولمة وانطلاقها، ومن الناحية الاقتصادية يُعد ذلك انتصار للنظام الرأسمالي والذي يعني هيمنة الرأسمالية الغربية على العالم مما كان لها سلبيات في تطبيقات العولمة اساءت الى المفهوم الاشمل لها وبالرغم من ذلك لا يمكن ان ينكر أحد ان للعولمة دور رئيسي في تطور العلوم والتكنولوجيا وانتشار الثقافة.

وعن نشأة العولمة سنجد ان هناك بعض الباحثين يرجعوا نشأتها لأبعد من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، تأكيداً انها ليست وليدة اليوم، بل هي عملية تاريخية قديمة مرت عبر الزمن بمراحل ترجع إلى بداية القرن الخامس عشر إلى زمن النهضة الأوروبية الحديثة حيث نشأت المجتمعات القومية، فبدأت العولمة ببزوغ ظاهرة الدولة القومية عندما حلت الدولة محل الإقطاعية، مما زاد في توسيع نطاق السوق ليشمل الأمة بأسرها بعد أن كان محدوداً بحدود المقاطعة. إلا أنها في السنوات الأخيرة شهدت تنامياً سريعاً، والدعوة إلى إقامة حكومة عالمية، ونظام مالي عالمي موحد والتخلص من السيادة القومية بدأت في الخطاب السياسي الغربي.

٢-١ العمارة والعولمة..

ترتبط العمارة بشكل مباشر بالعولمة والتي لها تأثيرات عديدة عليها، سواء مهنياً أوتصميمياً والتي لمددت حتى تشمل التعليم المعماري، فالعولمة اتاحت الفرصة للمعماريين ان يعملوا أو يصمموا مشاريع في بلدان غير بلدهم وايضاً التشارك بالعمل في مشاريع واحدة في نفس التوقيت، وفي مجال التصميم اتيح استخدام نفس التقنيات والخامات في دول مختلفة حتى وصل الامر الى استخدام نفس التصميمات، اما في مجال التعليم ومع تطور وسائل الاتصالات اصبح من السهل التعلم من بعد والتواصل افتراضياً بجانب توحيد المناهج والاعتراف الدولي بالشهادات المحلية بجانب استكمال التعليم في دول مختلفة. وفي ظل ذلك يبدأ

الصراع التبادلي بين دول نامية تسعى للاستفادة من خبرات الدول المتقدمة لتنمية بلادها ودول متقدمة تهدف إلى نقل خبراتها واكتشافاتها الى الدول النامية من اجل ايجاد فرص عمل لمواطنيها وسوق لمنتجاتها.

وفي هذا الصدد يؤكد م. هيثم صادق سليم[1] على ان تنامى ظاهرة عمارة العولمة فى مصر إرتبطت بدخول الشركات العابرة للقوميات كنتيجة طبيعية لسيطرة الإقتصاد العالمى على مصر وإرتباط الدولة بإتفاقيات التجارة الحديثة والتى تشجع على إنتقال رؤوس الأموال بحرية بين الدول، ويضيف ان البعض من المعماريين المصريين رأوا ان ركب الحداثة المعمارية من وجهة نظرهم تكون بتقليد التجارب المعمارية العالمية ولكن للاسف بفحص تلك النماذج يتضح أنها تهتم فقط بإعلاء النواحى الشكلية دون وجود أى أفكار متعلقة بتطبيقات التكنولوجيا الحديثة داخل المبنى أو محاولة إعادة صياغة الأفكار بشكل يتناسب مع حتمية تحقيق الكفاءة الامثل للمبنى من النواحى البيئية والمناخية، أو ملائمة الطابع المحلى أو الثقافة التى تميز كل مجتمع عن الأخر والتمييز هنا لا يعنى الأفضلية بقدر ما يعكس الخصوصية.

واذا كانت الظاهرة بدأت بمسمى "عمارة العولمة" أي ان هذه العمارة هي أحد منتجات العولمة، فأصبح من الضروري ان يتحول المسمى إلى "العولمة المعمارية"، وهذا الأمر أكثر دقة ومختلف تماماً حيث يعتمد على انها تخطت مرحلة المنتج لتصبح منهج وفلسفة من الممكن ان تقود من حولها إلى مساحات بها العديد من الايجابيات والسلبيات، مما يتطلب التعامل معها بكل حذر لتجنب المخاطر والاستفادة من الفرص وهذا الامر يستدعي وضع مجموعة من المباديء والقرارات والتوجهات، أي اننا في حاجة إلى وضع "مانيفستو" لكيفية التعامل مع العولمة المعمارية وادواتها.

٢-٢ العولمة والاستعمار..

العولمة لا تعترف بالحدود الجغرافية لأي بلد بل جعلت من العالم قرية صغيرة، فنجد مالكولم واترز (Malcolm Waters) مؤلف كتاب العولمة يعرفها بأنها "كل المستجدات والتطورات التي تسعى بقصد أو بدون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد"[2]، فمع العولمه سيختفي الاحساس بالحدود بين الدول أو خصوصيتها وسنجد الشعوب ترتبط بمجالات ومحاور تتخطى البعد المالي والاقتصادي لتصل إلى بعد حيوي ثقافي متمثل في مجموع التقاليد والمعتقدات. وتطور ونمو الدول الرأسمالية المتحكمة في الاقتصاد العالمي جعلها تبحث عن مصادر وأسواق جديدة مما يجعل حدودها الاقتصادية تمتد إلى ربط مجموعة من العلاقات مع دول نامية، لكن الشيء السلبي هو أن هذه الدول المتطورة على جميع المستويات الفكرية والثقافية والعلمية دخلت في هوية الدول الأخرى مع تمسكها بالحفاظ على هويتها الثقافية، مما دفع الكثير من المفكرين ان يتعامل مع العولمة بأنها وجه جديد للاستعمار والذي يبدأ اقتصادياً ليتطور فيشمل كل مناحي الحياة.

[1] هيثم صادق سليم، ٢٠١١ عمارة العولمة في مصر وغياب مفاهيم الإستدامة فى التصميم دراسة حالة المبانى الإدارية بالقاهرة الجديدة، بحث بمجلة جامعة الازهر.

[2] Malcolm Waters, 1995, Globalization, routledge, London & new york

٢-٣ المنطقة العربية والظرف الحالي..

تمر المنطقة بأصعب الفترات التاريخية، نتيجة للحروب والصراعات والثورات والتي لم تكن سوى نتيجة لادارة خاطئة للبلدان العربية افقدت شعوبها الكثير من خيرات الوطن، مما أدى الى ضعف اقتصادي وسياسي اثر سلبياً على قيمتها النسبية بين باقي دول العالم، وللاسف الشديد هذا الامر له دور جوهري في ان تتوغل سلبيات العولمة المعمارية في داخل البلدان العربية في غياب ملحوظ للهوية العربية والتي من المفترض ان يكون لها دور في اتزان المعادلة وتجنب السلبيات مع استثمار الايجابيات.

ومن يتأمل الوضع الحالي سيكتشف بسهولة عدم وجود رؤية كاملة وشاملة لعلاج الاشكالية، وكما يقول دكتور جلال عبادة "وبالرغم من الافتقاد الى ملامح مشروع حالى متكامل للتحديث الحضارى فى معظم البلدان العربية وغياب رؤية واضحة متسقة للاصلاح الثقافي للمجتمع والفكر العربى, لتؤثر بدورها على النتاج المعمارى المعاصر كأساس للتجديد والتحديث, الا أن المشهد الحالى يبشر فى مجموعه بتحولات هامة وجادة فى مسار تطور العمارة العربية المعاصرة"[٣]، ويتفق الباحث مع دكتور عبادة في وصفة للحالة الحالية وايضاً بتوقعه بحدوث مجموعة من التحولات الهامة والجادة في مسار تطور العمارة العربية مما يدفعنا بل ويحتم علينا دراسة الموقف دراسة متأنية ومستفيضة حتى نكون فعالين ونتخطى حاجز رد الفعل، ويكون للمؤسسات المعمارية والهندسية في المنطقة العربية دور تقوم به بمسئولية ليؤثر تأثيرات ايجابية في التغيرات المعمارية التي ستطرأ نتيجة للتحولات المتوقعة.

مما سبق نستخلص انه لا يمكن ان تعيش العمارة في معزل عن العولمة، وان للعولمة المعمارية ايجابيات وسلبيات مما يستدعي ان نتعامل معها بحكمة من خلال "مانيفستو" يتضمن مجموعة من التوجيهات والمباديء العامة وله القدرة على التطور تبعاً للظروف، وان العولمة مرغوبة بعيداً عن الافكار الاستعمارية فلا سبيل عن التكامل والتعاون بشكل عام بشرط ان يضع الضعفاء اليات وسبل التعاون حتى لا يستغل الاقوياء ضعفهم.

بخلاف ذلك فنحن امام فجوة كبيرة بين مفهوم العولمة، والتي تستهدف ان يكون الشيء عالمي ومتاح دون حدود، وبين التطبيق الذي اتاح لعض الدول التحكم في مقدرات دول أخرى مما يشبه الاستعمار بأشكال مختلفة.

ويتبقى السؤال الأهم هل العولمة المعمارية تعني ان يكون العمل المعماري عالمي في مواصفاته وادواته وجودته، أم ان العمل يصبح عالمي بسبب ان من يقوم به معماري عالمي لا ينتمي للبلد ذاتها...!؟
وهل العولمة المعمارية تستدعي عدم وجود هوية محلية ..!؟

[٣] جلال عبادة، ٢٠٠٦، المشهد المعمارى العربى المعاصر: تأملات حاضرة ورؤى مستقبلية، منتدى جده الدولى للعمران

٣. الهوية

الهُوِيَّةُ في الفلسفة، هي حقيقةُ الشيءِ أَو الشخص، التي تميزه عن غيره..
فالهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئاً عن غيره أو شخصاً عن غيره أو مجموعة عن غيرها، والهوية لها عناصر في حالة ديناميكية دائمة، فالهوية تتطور عبر الزمن فيبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها الآخر في مرحلة أخرى، وفي فترات التحول[٤] قد يحدث فيها تغير واضح وجذري، وللهوية مستويات تبدأ من الفرد ثم المجموعة حتى تصل إلى الهوية القومية، والتي تدل على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر تميزهم عن مجموعات أخرى، سنجدهم يتشابهون بالميزات الأساسية التي كونتهم، وربما يختلفون في عناصر أخرى لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة. والعناصر التي يمكنها بلورة هوية جمعية هي كثيرة، أهمها اشتراك الشعب أو المجموعة في: الأرض، اللغة، التاريخ، الحضارة، الثقافة، الطموح وغيرها.

وبالتالي فالهوية هي نتيجة لتفاعل بين البيئة والسكان، متأثر بالتقاليد والعادات والموروث الثقافي والحضاري، والهوية في حد ذاتها ليست شكلاً ملموساً إنما النتاج الذي تخلفه هو الملموس، واهم منتاجتها هي العمارة ومن هنا تظهر أهمية الهوية المعمارية. لذا كلما كان الشكل المعماري أو التكوين العمراني مرتبطاً بالتقاليد والعادات الاجتماعية، كان جزءاً اصيل من الهوية ومعبراً بقوة عنها، ويمتلك القدرة على الاستمرار عبر الزمن، انما كلما كان الشكل مرتبطا بتصورات وقيم فردية كان معزولاً وعرضة للتغير عبر الزمن بسهولة.

٣-١ هوية الشعوب وهوية القبائل..
اذا كانت الشعوب ترتبط بالدول التي تنتمي اليها، فأن هويتها ترتبط بشكل واضح مع حدود الدولة وسماتها، بينما هوية القبائل قد تكون جزء من دولة أو تمتد لعدد من الدول، مثل القبائل العربية والتي هاجرت من الجزيرة العربية للعديد من الدول، واحتفظت اغلب تلك القبائل بمجموعة من السمات الاساسية والتي تشكل الهوية، وبالتالي سنجد ان هذه الهوية تمتد عبر الحدود وان اهل القبائل ينتمون لشعوب مختلفة تبعاً للدول ولكنهم يتفقون في الهوية المميزة لهم.

[٤] قد تتعرض المجتمعات لفترات تحول تؤثر على الهوية بشكل واضح، وللتحول انواع كثيرة تندرج تحت اربع حزم اساسية وهي: السياسية، والعلمية، والمجتمعية، والثقافية، وتكون لاسباب عقائدية او تحولات عرقية أو ... فالإطار الفكري لأي مجتمع مكون من عنصرين وهما الخلفية الثقافية، والمحتوى العام للحظة التاريخية لهذا المجتمع، فإن أي تغير زمني أو ثقافي له دور في التأثير عليه. ولذلك يجب أن نتعرف على أنواع الثقافات المختلفة التي قد تسود إحداها أو بعضها على مجتمع معين في فترة ما لتكون إطاره الفكري وتؤثر عليه وتتسبب في إحداث تحول مجتمعي. وجدير بالذكر هنا أن نؤكد على أن التحولات في تلك حزم قد تحدث بشكل جبري أو قرار سيادي أو تحدث تدريجيا بناءا على طبيعة الظرف.

٣-٢ الهوية العربية..

طبقاً لتعريف جامعة الدول العربية فالشخص العربي هو الشخص الذي لغته اللغة العربية، ويعيش في بلد ناطق باللغة العربية، وله نفس تطلعات الشعوب العربية الناطقة بالعربية. والهوية العربية ليست هوية دينية إسلامية لانها ترجع إلى ما قبل ظهور الاسلام، ويمثل المسلمون الناطقون بغير اللغة العربية حوالي ٨٠% من تعداد المسلمين حول العالم، إلا أنهم ليسوا جزءً من العالم العربي، ويشغلوا حيز جغرافي أكبر وهو العالم الإسلامي. والمنطقة العربية شهدت تاريخياً ظهور ممالك مسيحية عربية ووجود قبائل يهودية عربية. ومع ذلك، فاليوم يعد معظم العرب مسلمون، مع وجود أقليات من ديانات أخرى، أغلبها مسيحية والتي تشكل تقريباً ١٠% من اجمالي العرب.

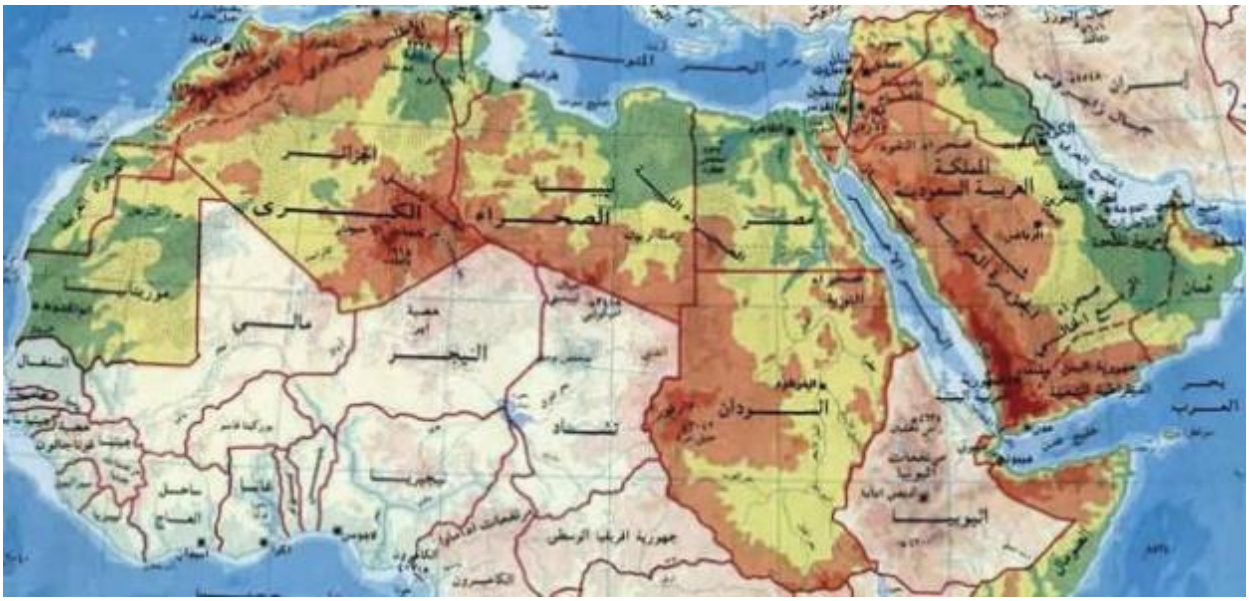

يتعامل الكثير مع الهوية العربية على انها متماسكة وذات سمات واضحة، مستندين في ذلك على وحده اللغة وجوار الدول بعضها لبعض. ولكن، بالرغم من هذا فالهوية العربية متنوعة ومتباينة السمات من دولة إلى اخرى ومن مجموعة دول إلى الاخرى وذلك داخل نطاق المنطقة العربية ذاتها. ويرجع ذلك إلى الظروف المختلفة التي مرت بها الدول عبر العصور مما أكسبها سمات متنوعه، ويظهر هذا جلياً عند مقارنة منطقة الخليج بمنطقة الشمال الأفريقي مثلاً.

وهذا الأمر يعطي ثراء للهوية العربية ومرونة للتكامل بين شعوب دولها منفرده مع شعوب دول العالم الأخرى، ومع انتشار القبائل العربية داخل بلدان المنطقة متخطية الحدود السياسية لها، يعطي ترابط وتماسك كشرايين الدم داخل اطراف الجسد الواحد المتنوعة الوظائف والمتباينة السمات.

٣-٣ الهوية المكانية والهوية اللامكانية ..

برزت في الفترة الماضية قضية الهوية المكانية بوصفها إحدى القضايا التي تحظى بالاهتمام في التخطيط والتصميم العمراني، ومع زيادة الاهتمام بالمواقع التراثية ظهرت مخاوف فقد السمات المميزة والشخصية الخاصة بالمكان نتيجة الاثار السلبية للعولمة الثقافية بوجهاً عام. الهوية ترتبط بشكل رئيسي بالمكان وطبيعته، ويشير مصطلح الهوية المكانية إلى مجموعة من الأفكار حول المكان وهويته في مجالات التخطيط والتصميم العمراني، العمارة، وعلم الاجتماع العمراني، ويرتبط هذا المصطلح بالتفاعل القائم بين الأماكن وقاطنيها. ولكي نحلل وندرك ابعاد هوية المكان علينا استخدام اساليب تعتمد على مشاركة المجتمع، ومن اقوى تلك الاساليب التصميم التشاركي والتشاور مع سكان المجتمعات المحلية. واحياناً يطلق على الهوية المكانية مصطلح الشخصية الحضرية أو الشخصية المحلية.

واذا كانت الهوية المكانية هي نتيجة التفاعل بين المكان بكل ابعاده مع قاطنيه، والتي تنتج نتاج فني ومعماري مرتبط بخصوصية المكان نفسة، فأن الهوية اللامكانية والتي ظهرت مؤخراً انتجت حالة جديدة من العمارة لا ترتبط بالمكان وظروفه حتى اصبح المنتج عبارة عن مباني متشابهه تستخدم كما هي في البلدان المتنوعة مهما اختلفت الظروف، ومن امثلة ذلك الاسواق التجارية الكبرى والمجمعات السكنية compounds المتكررة.

من المعتاد ان نرى مثل تلك المشاريع في كل انحاء البلدان العربية، تصميمات لا تنتمي للمكان ولا تعبر عنه أو ترتبط به..!

١

٢

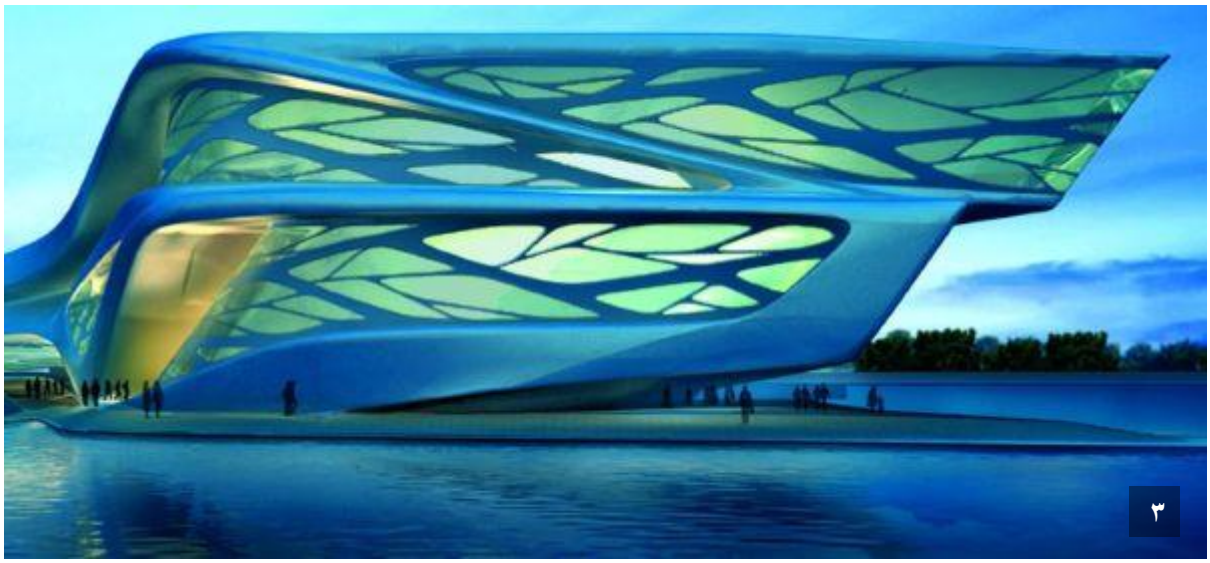
٣

ثلاثة من اهم المشاريع الحديثة باو ظبي لمعماريين عالميين..

الاول برج بيزا المائل بابو ظبي، وهو رمز مهم لابو ظبي ارتفاعة ١٦٠ متر ويميل ١٨ درجة وتم تصميمة من قبل RMJM وقد اعتبر المتخصصين ان التحدي هنا هو الميل. والثاني هو برج الدار المستدير للمعماري MZ architects والذي يعتبرة المتخصصين افضل تصميم مستقبلي ومن ابرز المعالم المعمارية الحديثة بالمنطقة، وسيكون من أول المباني الخضراء في أبوظبي، وهو يتطلع للحصول على تصنيف في الفئة الفضية على الأقل وفق نظام (ال اي اي دي) المتبع لدى مجلس البناء الأخضر الأميركي. اما المشروع الثالث فهو مركز الفنون بمنطقة السعديات الثقافية للمعمارية وقد تم تصميم المبنى وتجهيزاته الصوتية على يد المعمارية زها حديد بشكل يساعد على توفير أجواء فنية ذات مستوى عالمي متميز.

مباني تستخدم اعلى التقنيات العالمية، وتبحث عن تحقيق الاستدامة، وتعتمد على تشكيلات ملفته ...
ويبقى السؤال اين الهوية ...!!؟ وهل سيتغير المبنى اذا تم تنفيذة في منطقة أخرى ...!!؟

مسابقة

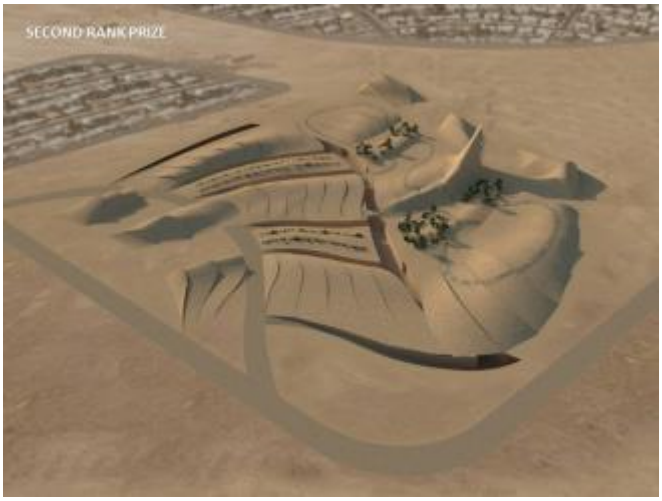

مسابقة مدينة العلوم بالسادس من اكتوبر بمصر، والتي تم اعلان نتيجتها نهاية شهر اغسطس الماضي. فاز بجميع الجوائز معماريين عالمين والتصميمات معبرة بشده عن العولمة المعمارية.

هل تتسم تلك المشاريع بالهوية المكانية أم بالهوية اللامكانية..!!؟

٣-٤ جدالية الاصالة والمعاصرة..

استمرنا لفترة، بل ومازلنا نسير في فلك كلمتي الاصالة والمعاصرة بغاية علاج الاشكالية بين الهوية والعولمة، ولكن الامر لم يتخطى في كثير من الاحيان ابعاد استخدام المفردات التراثية، دون التعمق في الفلسفة من وراء استخدامها، فتاعملنا مع المنتج الهانا عن المنهج الذي أتى بهذا المنتج..! ففكرة توظيف العمارة التاريخية (عمارة الماضي) ارتبطت في بعض الممارسات بتوظيف مباشر للطرز التاريخية بينما تتجة ممارسات أخرى نحو توظيف فكر معين يقع خلف هذه الطرز، وبنفس الوقت هناك اطروحات وممارسات تدل على وجود حركات معاصرة تعتمد الاسس المتواصلة لعمارة الماضي.[٥] ويؤكد الباحث على اننا يجب ان نخرج من ثنائية التراث والمعاصرة والتي تم حصرها في استخدام مفردات معمارية ذات قيمة تراثية بتقنيات حديثة، الى منهج جديد يتعامل مع الفلسفة التي وراء المفردات، منهج يتعامل مع الحضارة ولا يختزل الامر في منتجاتها.

في الحقيقة ان كثير من الاجتهادات المعمارية في اتجاه الهوية تم اختزلها في اعادة استخدام المفردات التراثية متخيلين ان باستحضارها سنشكل الهوية، ولكن للاسف الهوية المنتجة هي هوية غير حقيقية، لذا يرى الباحث ان دور المعماري يجب ان يتركز في استثارة جذور الهوية في بواطن ذاكرة الشعوب، فنحن لسنا في حاجة لاكساب الشعوب هوية جديدة، أو اعادة تشكيل الهوية، فدورنا كمعماري يتلخص في مساعدة الشعوب لاعادة اكتشاف الهوية في داخلهم، فللهوية جذور لا يمكن ان تنتهي.

[٥] تارة عبد الرازق – غادة موسى، ٢٠٠٧، العلاقة بين الطرز والحركة في العمارة واثرها في التصميم على الاعمال المعمارية المعاصرة في العراق، مجلة الهندس – مجلد ١٣

٤. العلاقة بين العولمة والهوية..

ما بين مفهومي العولمة والهوية يبدأ الحوار الذي يصل لدرجة الصراع، فالعولمة تسعى نحو الوحدة والنمطية، بينما الهوية تتبنى الدفاع عن التعدد والتنوع، ليمتد إلى العولمة التي تسعى للقضاء على الحدود والخصوصيات المختلفة وفي المقابل تسعى الهوية إلى الاعتراف بعالم الاختلافات وترفض الذوبان. فهل سيستمر هذا الصراع ...؟ وسيظل تصادمي ؟ أم من الممكن التعامل مع تلك المعادلة بشكل أخر، يتيح استثمار مميزات العولمة دون طمس للخصوصية المتمثلة في الهوية..؟

من المؤكد ان للعولمة المعمارية ايجابيات ؟ ولا يجب اختزالها في كونها ادوات لتحقيق مجموعة من المصالح فقط ...!!! واذا كنا خلُصنا في النقطة السابقة إلى ان دور المعماري هو استثارة جذور الهوية في بواطن ذاكرة الأمة، فعلينا ان نسعى لتمكين المعماري من تحقيق ذلك، والذي لن يتحقق في الحالة التصادمية، او الممارسات الانتهازية التي تنتهجها بعض الدول من خلال استغلال العولمة المعمارية.

لذا يرى الباحث ان الحل يكمُن في الاليات والمنهج، ولنبدأ بالعولمة المعمارية والتي يجب ان تتحول إلى وسائل واليات تسهل التعامل على كل المحاور دون ان تؤثر على المنتج المعماري سلبياً، مع وضع ضوابط تساعد المعماري في القيام بدورة تجاه الهوية المميزة للمكان المستهدف، مع ضرورة ان يتم ذلك بشكل تكاملي غير تصادمي ينتج معمار يليق بالمنطقة العربية.

الهوية العربية تستطيع ان تقف في مواجهة العولمة المعمارية لتحجم سلبياتها بشرط ان تقوم المؤسسات المعمارية العربية بدورها وتدعم وتساعم المعماريين العرب للقيام بدورهم، ولتحقيق ذلك سنتطرق للدور الذي من الممكن ان تلعبه المؤسسات بعد التعرف على تجربتين رائدتين في ذلك وهما تجربة المعماري حسن فتحي، وتجربة مؤسسة الاغا خان.

٤-١ التجارب والمحاولات

- **جائزة اغاخان**

جائزة اغاخان للعمارة تعد من اهم التجارب والمحاولات التي تسعى لمواجهة التحولات التي لا تتمشى مع القيم الحضارية الاسلامية، وتم تدعيم عدد من الأنشطة التي تساعد على ايقاظ الوعي الثقافي للمسلمين، من خلال القاء الضوء على قيمة التراث الفريد للفن والعمارة الاسلامية وحث من يقومون بالبناء على انتاج اعمال معمارية معاصرة تتمشى مع الحضارة الاسلامية، ولقد كانت الوسيلة تخصيص مجموعة من الجوائز التي تمنح كل ثلاث سنوات للمشاريع المتميزة والتي تعتبر قدوة تجسد المزج السليم بين الاصالة الثقافية والتقنيات الحديثة المعاصرة. ويؤكد ذلك د.اسماعيل سراج الدين فيقول " ان اختيار المشروعات يعتمد على فاعليتها كحافز لتطوير فهم المهنين للبيئة والثقافة بنفس القدر الذي يعتمد فيه على القيمة التصميمية لكل منها، ومن ثم يصبح الهدف هو تغذية مهنة العمارة والمهن

الأخرى المتعلقة بها، بوعي قوي بجذور الثقافة الاسلامية وجوهرها. وبالتالي يكون التزام أكثر عمقاً بين المعماريين، للبحث عن تعبيرات ذات معنى لروح الاسلام داخل سياق الحياة الحديثة وقي إطار التكنولوجيا الحديثة." [٦]
تجربة الاغا خان تعتبر تجربة رائدة ومن الممكن ان نستفيد منها عن طريق اقامة مسابقة بين المعماريين العرب وفي داخل المنطقة العربية من اجل الحصول على مشاريع تعلي من الهوي العربية.

بعض المشاريع الحاصلة على جائزة الاغا خان.

- **حسن فتحي**

المعماري حسن فتحي له تجربة رائدة والتي لخصها في كتابة "عمارة الفقراء" .. تكمن قيمة المعماري حسن فتحي في دعوته إلى ادراك قيمة الطوبة كوحدة بناء، لبناء الانسانية وليس لبناء المنشاءات كما قد يتخيل البعض، وللاسف اننا لم ندرك تلك القيمة بالقدر المناسب، فاحياناً يتم اختزالها في مجرد المنتج المعماري الذي خلفه تاركين قيمة الفكر والفلسفه التي كان هذا المنتج المعماري أحد تطبيقاتها. كما أننا لم نتعامل مع هذا المنتج المعماري بالقدر الكافي من المسؤلية، فاذا كان البناء بالقبة والقبو من أهم وأشهر طرق البناء التقليدية بإستخدام المواد المحلية– وتلك كانت الطريقة التي لجأ اليها حسن فتحي– فنجد أن الكثير هاجم صميم الفكرة بإستهزاء وسخرية، وكلنا نعلم كم الاستهزاء الذي تعرض

[٦] اسماعيل سراج الدين، ١٩٨٩، التجديد والتأصيل في عمارة المجتمعات الاسلامية، مؤسسة اغا خان للعمارة

له حسن فتحي في بداية طرحه للفكرة، مثلما حدث مع مشروع مركز الشباب على سبيل المثال، وأحياناً أخرى تحول تناول البعض لافكاره إلى موضة "أشبة بالجلابية بارتي"، بل ووصل الأمر احياناً إلى المتاجرة بأسم حسن فتحي....!

وبالعودة لحلم حسن فتحي والذي ذكرة في كتابة "عمارة الفقراء" سنجد انه "بناء قرية يتبع فيها الفلاحون أسلوب الحياة الذي اتمناه لها"، حلمه كان اسلوب حياه، يتمنى أن يكون قائماً على فكر متمثل في ثلاثة اركان وهي: التشارك، واستخدام التكنولوجيا المتوافقة مع البيئة، واخيراً استحضار الهوية العربية التي ستكون الحصن الذي يحمينا من الإستعمار الثقافي والسياسي.

هذا كان الحلم، وهكذا كان يرى حسن فتحي حيث كان يعول على الهوية العربية ان تكون هي الحصن امام الاستعمار الثقافي والسياسي وهي مسئولية كبيرة يتحملها الكثيرين واولهم المعماري، ولكن لا يجب اختزال تلك المهمة في استخدام بعض المفردات والتشكيلات المعمارية، بل يمتد إلى الفلسفة من وراء التصميم وإلى الحضارة التي كانت عليها الشعوب.

الخلاصة..

نستخلص من تجربة المعماري حسن فتحي التأكيد على دور الهوية العربية في مواجهة الاستعمار بانواعة وبالاخص الثقافي، والذي يعتبر اصعبهم واكثرهم تأثيراً سلبياً على الشعوب المستعمرة، بجانب تأكيد أخر مهم جداً وهو ان بناء المجتمعات مع التركيز على المواطن البسيط والذي بتشاركة مع بعضة البعض من الممكن ان يحدث الفارق. اما من تجربة اغا خان نستخلص ان اسلوب الجوائز التي تعطى للمشاريع التي تحقق الرسالة، هو فكرة ذكية جداً ومن الممكن ان تحقق حراك ايجابي في تجاه استحضار الهوية، مع جعل نطاق الجائزة للمنطقة العربية ومن الممكن تحديد عنوان لكل دورة والتي من الممكن ان تقام كل عامين مع انعقاد "هيئة المعماريين العرب".

٢-٤ المؤسسات الهندسية والمعمارية العربية..

ظروف صعبة تمر بها المنطقة، ومسئولية كبيرة على المعماريين من اجل الحفاظ على الهوية العربية، بجانب مؤسسات أقليمية ومحلية تسعى للبناء لتكون قادرة على تحقيق المهمة، امام ما سبق علينا ان نتسائل من يستطيع ان يبني قوته على من ؟ هل المؤسسات الاقليمية تبني قوتها على قوة المؤسسات المحلية أم العكس..؟ في الحقيقة تلك الاسئلة من الصعب ان نجد لها اجابات تقليدية قاطعة، فالحل سيكون لدى الاثنين معاً، بحيث تقوم المؤسسات المحلية والاقليمية بدورهما من خلال رؤية وخطة تنفيذية مبنية على كيفية تقوية بعضهما البعض، فيكون العمل هو وسيلة بناء مؤسساتنا.

وكما كانت بداية تأسيس اتحاد المهندسين العرب مبنية على أهمية وجود اتحاد يضم النقابات وجمعيات و هيئات الهندسية العربية فى كيان واحد متين وكانت أولى المحطات الأساسية هى تشكيل لجنة تحضيرية دائمة للمؤتمرات الهندسية فى المشرق العربى تتضم ممثلين عن جميع أقطار المشرق العرب وذلك كما جاء فى ديباجة مقررات وتوصيات المؤتمرالهندسى العربى الثانى والذى عقد فى القاهرة عام ١٩٤٦م وظل الشعور يتجدد مع إنعقاد كل مؤتمر هندسى عربى. اما بخصوص هيئة المعماريين العرب نشأت فكرة تأسيس هيئة للمعماريين العرب فى برايتون عام ١٩٨٧ أثناء إنعقاد المؤتمر العالمى للمعماريين. وفى عام ١٩٩٠ تجددت الفكرة عندما إجتمع المعماريون العرب وشكلوا إتحادا للمعماريين العرب وتم إنتخاب المهندس ماجد خلوصى (مصر) أميناً عاماً لهذا الإتحاد.

اذا كانت هكذا كانت البداية فالآن نحن في اشد الحاجة لوجود كيان هندسي فعال يستطيع تحقيق الاهداف المرجوه منه، كيان يكون له القدرة على التنظيم والتنسيق بين المؤسسات المحلية، ولن يحدث ذلك الا في حالة وجود الرغبة لدى المؤسسات المحلية قبل الكيان الاقليمي، ويقترح الباحث مجموعة من الاجراءات التي تسعى لتحقيق ذلك تبدأ بوضع سياسات داعمة للمهنة وللمعماري من قبل الاتحاد الاقليمي، ويقترح ان يتم ذلك على ثلاثة محاور تبدأ بالتدريب، ثم تسهيل وحل مشاكل الخاصة بالعمل والامور الفنية في الدول الاعضاء، وتنتهي بمحفزات في مجال الهوية.

في مجال التدريب يُقترح اقامة ان يكون التدريب بالممارسة والمشاركة في ورش عمل، هدفها اعداد معماريين قادرين على العمل على تحقيق الهدف الخاص باستحضار الهوية وتطويرها، ويتم وذلك باقامة اربع ورش عمل سنوية تبادلية في المدن العربية يشارك فيها المعماريين العرب. وفي مجال العمل يتم العمل على محورين الاول يخص المعماري نفسة والثاني يخص ادوات المهنة، فيما يخص المعماري مطلوب توحيد الاجراءات الخاصة بالعمل في كل البلدان العربية وانشاء هيئة لمباشرة العمل ومشاكل المعاريين به، وفيما يخص ادوات المهنة مطلوب توحيد الاكواد الهندسية واللوائح الخاصة بممارسة العمل على ان لا يغفل التوحيد خصوصية البلدان بعضها عن بعض وان يكون التوحيد لمصلحة الاختلاف، اما في مجال التحفيز يقترح الباحث اعتماد جائزتين بأسم الهوية العربية، الاولى جائزة تقديرية تمنح كجائزة اضافية في كل المسابقات المعمارية الدولية، والثانية جائزة تمنح كل عامين للمشروعات التي تتعامل مع الهوية بشكل ايجابي.

م	الدولة	اسم المؤسسة
١	الامارات	جمعية المهندسين
٢	اليمن	نقابة المهندسين اليمن
٣	سوريا	نقابة المهندسين – دمشق
٤	ليبيا	النقابة العامة للمهن الهندسية
٥	تونس	عمادة المهندسين التونسيين النقابة الوطنية للمهندسين التونسيين
٦	العراق	نقابة المهندسين العراقية (بيت المهندس العراقي)
٧	لبنان	نقابة المهندسين
٨	الكويت	جمعية المهندسين الكويتية
٩	السودان	الاتحاد العام للمهندسين السودانين
١٠	عمان	جمعية المهندسين العمانين
١١	قطر	جمعية المهندسين القطريين
١٢	السعودية	الهيئة السعودية للمهندسين
١٣	المغرب	الاتحاد الوطني للمهندسين المغاربة
١٤	موريتانيا	عمادة المهندسين المعماريين
١٥	البحرين	جمعية المهندسين البحرينية
١٦	الاردن	نقابة المهندسين
١٧	الجزائر	نقابة المعماريين الجزائريين
١٨	فلسطين	نقابة المهندسين الفلسطنين

جدول يوضح المؤسسات الهندسية الخاصة بالدول الاعضاء باتحاد المهندسين العرب.

٥. النتائج والتوصيات

خلُص البحث الى مجموعة من النتائج والتي كان ليها انعكاس مباشر على التوصيات، فمن النتائج نتلمس ان لدينا فجوة كبيرة بين مفهومنا للعولمة أو الهوية كلا على حدى وبين التطبيق لكلا منهما، مما يضر بشكل مباشر بالمفهوم، وان كان في جزء كبير يكون هذا متعمداً من اجل استحواذ البعض على البعض الأخر، ومن هنا ستسعى التوصيات لسد الفجوة تدريجياً.

التوصيات..

انقسمت التوصيات الى ثلاثة مجموعات تعمل على محاور مختلفة ولكنها تتكامل لتحقق الاهداف العامة المرجوة، الاولى بغرض تفعيل المؤسسات الهندسية والمعمارية محلياً واقليمياً والتي ستنعكس بالايجاب على المنظومة ككل والمعماري العربي كفرد، والثانية بغرض التحفيز والثالثة بغرض مراجعة وضبط اداء العملية المعمارية، والمجموعتين الثانية والثالثة يستهدفا انتاج منتج معماري مميز يُعلي من قيمة الهوية العربية مع استثمار ايجابيات العولمة المعمارية.

١. تقوية الترابط بين المؤسسات المعمارية والهندسية المتوفرة بالوطن العربي، والتزام المؤسسات المحلية باحترام قرارات المؤسسات الاقليمية.
    a. اعداد دورات تدريبية بالتبادل بين الدول من اجل اعداد معماريين قادرين على مواجهة التحدي.
    b. ورش عمل ربع سنوية لمتابعة نتائج التوصيات والنتائج.
    c. توحيد الاكواد واللوائح والتعاون بين المراكز البحثية، مع الحفاظ على الخصوصية الخاصة بكل بلد.
٢. اعداد "مانيفستو" يضع مجموعة من المباديء العامة لكيفية التعامل مع اشكالية الهوية والعولمة، يتضمن ايضاً البنود والمواد الخاصة بجائزة الهوية في الوطن العربي.
٣. منح جائزة سنوية لافضل مشروع قدم اطروحة لاستخضار الهوية العربية وتطويرها ايجابياً، يرشح للجائزة تقائياً من حصل على جوائز الهوية في المسابقات المعمارية في هذا العام، والمشروعات التي ترشحها المؤسسات الهندسية الاقليمية.
٤. اعداد مادة تدرج في المسابقات المعمارية التي تقام في الوطن العربي، تؤكد على ضرورة ان تتعامل الافكار والاطروحات مع الهوية العربية بشكل ايجابي سواء بالحفاظ او التطوير او بالاحياء او باضافة قيم او .. حتى تقام المسابقة تحت رعاية اتحاد المهندسين العرب، مع منح جائزة تقديرية "غير مالية" اضافية للمشروع الذي يحقق اعلى قيمة للهوية العربية تحت مسمى جائزة الهوية العربية.

٦. المراجع:

١- هيثم صادق سليم، ٢٠١١ عمارة العولمة في مصر وغياب مفاهيم الإستدامة فى التصميم دراسة حالة المبانى الإدارية بالقاهرة الجديدة، بحث بمجلة جامعة الازهر.

٢- جلال عبادة، ٢٠٠٦، المشهد المعمارى العربى المعاصر: تأملات حاضرة ورؤى مستقبلية، منتدى جده الدولى للعمران

٣- تارة عبد الرازق – غادة موسى، ٢٠٠٧، العلاقة بين الطرز والحركة في العمارة واثرها في التصميم على الاعمال المعمارية المعاصرة في العراق، مجلة الهندس – مجلد ١٣

٤- اسماعيل سراج الدين، ١٩٨٩، التجديد والتأصيل في عمارة المجتمعات الاسلامية، مؤسسة اغا خان للعمارة

٥- مها ابو بكر، ٢٠١٦، العمارة في فترات التحول، مؤتمر المعماريين العرب ببغداد

٦- Hassan Fathy, 1989, Architecture for the Poor, American University in Cairo, Egypt

٧- Malcolm Waters, 1995, Globalization, routledge, London & new york